المجمع 5 (2011/1432)، 189-203

من تراث الشاعر والكاتب ابن الطويل الدمشقي

لطفي منصور

اسمه وشيء من أخباره:

هو عبد الحَيّ (عَبدي) بن علي بن محمد بن محمود الحنفي الدمشقي، الشهير بابن الطويل الطالَوِي، المعروف بالخال. عاش في دمشق في أيّام الدولة العثمانيّة، وبزغ نجمه فبدّد ظلام ما يسمّيه المؤرّخون: عصر الانحطاط الأدبي، بما ترك لنا من تراث أدبيّ خالد يتمثّل في عملين:

الأوّل: كتاب ضخم في الأدب، سمّاه: كتاب سرور الصِّبا والشّمُول، ومُرور الصَّبا والمَشْمُول. لا يزال مخطوطًا.

والثاني: ديوان شعر كبير فيه المديح والغزل والأهاجي والمَواليا، ولا يزال مخطوطًا أيضًا.

وتهدُف هذه الدراسة إلى كشف اللثام عن وجه هذين العَمَلَيْن الجليلين.

نحن لا نعرف إلا القليل من أخباره، بالرغم من وجود ترجمتين له: الأولى في "سِلك الدُّرَر" للمُرادي[1]، والثانية في نفحة الريحانة للمحبي[2]. غير أن المُتَرْجِمَيْن لم يتطرّقا إلى حياته الخاصّة، وانشغلا في ذكر نماذج من شعره، وذكر بعض من عاصره.

يقول عنه المُرادي[3]:" الأديب الشاعر البارع، كان أُعجوبة وقته، له مهارة في نظم الشِّعْر والمَواليا[4] والمُوَشَّح، والهَزْل، وغالب هذه الفنون وغير ذلك. وديوانه متداوَل بأيدي الناس. ولم يزل على حاله إلى أن مات".

---

[1] المُرادي، محمد خليل بن علي (1173-1206هـ)، سلْك الدُّرَر في أعيان القرن الثاني عشر، دار البشائر الإسلاميّة، ط.3، بيروت، 1988م، 2: 244 - 253.

[2] المُحِبّي، محمد أمين بن فضل الله بن محبّ الدين (1061 - 1111هـ)، ذيل نفحة الريحانة، تحقيق عبد الفتّاح محمد الحلو، 6: 138 - 157.

[3] سلك الدّرَر 2 : 244.

[4] المَوالِيا أو المَوّال بالعاميّة: أحد فنون الأدب العربي، ومنها: المواليا، وكان وكان، والقوما، والدّوبيت، والسلسلة، والموشّح، والزجَل. وهو نظم لا يتقيّد دائمًا بالإعراب، بل يُسَكِّن أواخر الكلمات، ولا يتقيّد في أبياته بقافية

أمّا المُحِبّي فيقول[1]:" عبد الحيّ بن علي بن محمود فارس مَجال، وربُّ رَوِيَّة وارتجال، تُصرف إليه أَعِنّة التأْميل، ويميل به حُبُّ القلوب كيف يميل ... وهو يقتنص الشوارد حيث يطاردها، ويستخرج الدرَر الفرائد حينَ يُوارِدُها، بطبع متدفِّق المَذانب[2] وفِكْر يَفُلُّ بحدْسِه المَناقِب[3]. نَبُهَ في عصره بشرب البراعة، وتنبَّل حتى أحرز وصفَ الفروسيّة واليراعة .."الخ.

وهكذا لم يتطرّق الاثنان إلى شيء من أخباره الخاصّة، كمولده وشيوخه ورحلاته في طلب العلم وغير ذلك. وعرفنا من خلال ما وصلنا من شعره في المصدرين السابقين أنّه كان ماجنًا، وشاعرًا هزلاً غَزِلاً، وهجّاءً فاحشًا. وكانت له مطارحات شعريّة مع بعض إخوانه، وخاصّة مع الشيخ عبد الغني النابلسي كما سيأتي ذكر ذلك.

أمّا المصادر الحديثة التي ذكرت ابن الطويل فلم يحظ منها سوى أسطر قليلة نقلت من سلك الدرر، ولم تزد شيئًا[4].

وفاته:

لا نعرف كم سنة عاش ابن الطويل، لأنّنا لا نعرف تاريخ ولادته، ونعرف أنّه عاش في دمشق وتوفي بها، ونمتلك تاريخًا دقيقًا لوفاته، وهو اليوم الثالث من ربيع الآخر سنة سبع عشرة ومِائَة وألف للهجرة النبويّة. ودفن بتربة مرج الدحداح.[5]

واحدة، ولا برويّ واحد، بل ينوّع فيهما. انظر معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب 156، 216؛ المعجم المفصّل في اللغة والأدب 2: 1215- 1216.

[1] ذيل نفحة الريحانة 6: 138.

[2] المَذانب جمع مِذْنَب: مَسيل الماء على الأرض. قاموس: ذنب.

[3] المَناقب: الجماعة من الخيل تجتمع للغارة.

[4] ذيل كشف الظنون 1: 500؛ هدية العارفين 1: 509؛ الأعلام للزركلي 3: 290؛ معجم المؤلّفين 5: 108. فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهريّة (الشعر) ص: 1236؛ Brockelmann: g,11, 279, s, 388 .

[5] سلك الدرر 2: 253. وتربة مرج الدحداح هي المقبرة التي دفن فيها الصحابي أبو الدحداح، فعرفت باسمه.

أهداني قبل نحو عام صديق لي كتاب "سرور الصِّبا والشَّمُول" لابن الطويل الدمشقي، وهو كتاب يستحق الدراسة والتحقيق، أضعه بين يدي القراء بعد أن قمت بدراسة المخطوطة وتحقيقها، وأنا على ثقة بأنها ستحظى، لأهميتها، باهتمام الدارسين والباحثين في هذا الأدب.

ولما علمت أنّ المخطوط لم يُحقّق ولم يُنشر فيما مضى في أيّ مكان كان، عزمت على البدء في دراسة الكتاب لغرض ضبطه وتحقيقه ونشره. ولكن كيف البدء بهذه المُهمّة الجسيمة وأنا لا أمتلك إلاّ مخطوطة واحدة ينقصها شيء من آخرها لا أعرف مقداره. غير أنّ رغبتي في تحقيق الكتاب كان دافعًا لي لأُكثِّف العمل بجِدٍّ واجتهاد لمعرفة إذا ما كان هناك مخطوطة أخرى للكتاب أو أكثر. وأخيرًا وبعد توفيق الله تمكّنت من الحصول على مخطوطة أخرى للكتاب كاملة، مع اسم الناسخ وتاريخ النسخ وأسماء من امتلكوها، وعدد صفحاتها 476 صفحة، معدّل الأسطر في الصفحة الواحدة 36 سطرًا، فهو كتاب ضخم لم ينقصه شيء. وهكذا أصبح لديّ مخطوطتان جيّدتان، ولا أعرف إن كانت هناك مخطوطات أخرى للكتاب. ثمّ عقدت العزم على بدء التحقيق، متغلِّبًا على صعوبات القراءة التي تواجهني، مستعينًا بالمصادر المطبوعة التي استعان بها المؤلِّف، وقد قطعت شوطًا بعيدًا، راجيًا الله عز وجل أن يأخذ بيدي لإكمال عمل لا يعرف وعورته إلا مَن كابده وغرق في لُجَّته.

كتاب سرور الصِّبا والشمول ومُرور الصَّبا والمَشْمُول:

قسّم ابن الطويل كتابه هذا إلى عشرة أبواب ذكرها في مقدمته، ثمّ قسّم الأبواب إلى فصول، وهو ليس مبتدعًا في هذا التنظيم، فقد سبقه آخرون كان مقلِّدًا لهم، كالأَبشيهي (ت 854 هـ) صاحب المستطرف، ومحمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط (ت 718 هـ) صاحب الغرر الواضحة، ومحمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ) صاحب كتاب ربيع الأبرار، ومنصور بن الحسين الآبي (ت 421 هـ) صاحب كتاب نثر الدُّرّ وكثير غيرهم ممّن ألّفوا في الأدب المنثور.

أبواب الكتاب وموضوعاته[1]:

الباب الأوّل في الكَرَم. الباب الثاني في الحِكَم. الباب الثالث في الحِلْم. الباب الرابع في الفصاحة. الباب الخامس في الوقاحة. الباب السادس في المُغَفَّلِين. الباب السابع في الظُّرَفاء.
الباب الثامن في العِشْق. الباب التاسِع في الشِّعْر. الباب العاشر في تراجم الشُّعَراء المذكورين في هذا الكتاب.

وصف المُراديّ كتاب ابن الطّويل بقوله:" جمع كتابًا في الأدب سمّاه مرور الصّبا والشَّمُول، وسرور الصّبا والمشمول[2] ورتّبه على عشرة أبواب، جمع به كلّ نادرة مستحسنة، وحكاية لطيفة، ومُطارَحَة رَشيقَة، وأشعار رائقة، وقرَّظ عليه الأستاذ الشيخ عبد الغني النابُلُسِي[3] بقوله:[4] [من المنسرح]

أَنْقَطَــهُ العِلْــمُ نُقْطَــةَ الخــالِ ... في الخَـدِّ مِمّـا يَشِـينُهُ الخـالِي[5]
كِتابُهــا الــرَّوْضُ صَــاحَ بُلْبُلُــهُ ... فَهــاجَ بالشّــوق كُــلَّ بَلْبــالِ
يَجْمَــعُ فَضْــلاً وَرَوْنَقًــا وَعــلا ... كَعُـذَيْبِ مـاءٍ يَطِيـبُ سَلْسـالِ

ثمّ يصف النابُلُسي ما في الكتاب من أخبار العاشقين وأشعار السلَف وتراجم فيقول:

وقــائِعُ العــاشِقَيْنَ رائِقَــةٌ ... بِحُسْـنِ مَعْنًى وَلُطْـفِ أَقْـوالِ
رِقَّــةُ أَشْــعارِ مَعْشَــرٍ سَــلَفُوا ... ضَعِيفُهـا كَـالجُفُونِ أَقْـوَى لِي
وَتَرْجَمــاتٌ حَكَــتْ بَلاغَتُهــا ... لِلسِّحْرِ حِيكَـتْ بِحُسْـنِ مِنْـوالِ

---

[1] صفحة (ب1) من النسخة المعتمدة.

[2] قلب المرادي اسم الكتاب. واسمه الحقيقي في مخطوطتي الكتاب، كما دعاه مؤلِّفُه:"سرور الصّبا والشّمول، ومُرور الصَّبا والمَشْمُول".

[3] عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل الدمشقي المعروف بالنابُلُسي: عالم، أديب، ناظم، ناثر، صوفيٌّ، مشارك في أنواع من العلوم. مات سنة 1143/ 1731. معجم المؤلّفين والحاشية 5: 271273.

[4] سلْك الدرَر 2: 244 . 245. اكتفيت ببعض الأبيات وهي في أربعة عشر بيتًا.

[5] كلمة الخال الأولى: هو ما يكون في الخَدّ، ويجمع على خِيلان. وكلمة الخالي الثانية: هي من خلا يخلو، فكأنّ الوجه الخالي من خال يصيبه الشَّيْن. ولُقِّب ابن الطويل بالخال لخال جميل كان في خدِّه.

ومن الطبيعيّ أن يسأل المرء: ما هو هدف ابن الطويل لتأليفه كتابه "سرور الصِّبا"؟ للإجابة عن هذا السؤال نقول: لم يذكر أحد أن ابن الطويل كان مقرَّبًا إلى الحكّام أو الوُلاة، ليهديهم كتابه هذا، كما كان يفعل كثير ممّن سبقوه. ولم يذكر هو في كتابه أحدًا من أولي الأمر، في دمشق أو غيرها، فالظاهر أنّه كان بعيدًا عن السياسة، بالرغم أنه عاش في عصر الدولة العثمانيّة وهي في قمّة قوتها وسطوتها، غير أن هذا لا ينطبق على شعره الذي نظمه في موضوعات كثيرة فيها المناظرات والمطارحات والهجاء المقذع.

لقد كشف ابن الطويل في مقدّمته للكتاب عن غرضه في وضعه، فهو لم يكتب لنفسه فحسب وإنّما كتب للأصحاب والإخوان لغرض المُؤانسة والمُجالسة. يقول في مقدّمته:

" فهذه أوراقٌ أَوْدَعْتُها ما رَقَّ وراقَ مِن حِكاياتٍ رَقيقةٍ، ومُطارَحاتٍ رَشِيقَةٍ، وأشْعارٍ عَذْبَةٍ، وأبْياتٍ مُسَلْسَلَةٍ رَطْبَةٍ، تَسْتَخْرِجُ بِلَطافَتِها كَوامِنَ الأَشْواقِ، مِن أفْئِدَةِ العُشّاقِ، أَهْدَيْتُها للأَصْحابِ عَلَى سَبِيلِ المُؤانَسَةِ، وجَمَعْتُها لِمَنْ يَبْغِي المُصاحبَةَ والمُجالَسَةَ الخ. "

يظهر لنا أنّ كتاب "سرور الصِّبا والشمول" يمثِّل حياة ابن الطويل الدمشقي، فالموضوعات التي اختارها، والحكايات والطُّرَف والغزل والشّعر الرقيق قد حشا منها كتابه، كلّها تعكس أنماط حياته. والإنسان يختار ما يحبّ ويهوى، وقد اتّضح لنا أنّه كان غَزِلاً ماجِنًا، ميّالاً إلى اللّهو، صاحب حكايات وطُرَف، يحبُّ المُصاحبة والمؤانسة والظَرْف، وكما يقول المُرادي: "ولِلْمُتَرْجَم في الهَجْو والمُجون شيء كثير".[1]

مصادر الكتاب:

مصادر الكتاب كثيرة ومتعدّدة، لأنّ ابن الطويل جمع مادّة الكتاب من عشرات الكتب التي أُلِّفت في هذا النوع من الأدب. وهو يصرّح أنّه جمع مادّة كتابه جمعًا، ولم يكن واضعًا لها إلا ما نقله عن شيوخه مباشرة. وقد ذكر كتبًا بعينها استقى منها مادّته، وموادّ أخرى لم يشر إلى مصادرها، (ومن مهامّ المحقّق كشف تلك المصادر وأسماء مؤلّفيها، وسوف نبيّن هذا عندما

[1] سلك الدرر: 2: 253.

نفرغ من تحقيق الكتاب ونشره). وأكتفي بهذه الدراسة المتواضعة بذكر بعض من الكتب الرئيسة التي عرفها المؤلّف ونقل منها موادّ جمعها في كتابه "سرور الصِّبا والشَمُول":

1. الأبْشيهي، محمد بن أحمد (ت 854 ه). المستطرف في كل فنّ مستظرف. تحقيق إبراهيم سالم. بيروت: دار صادر، 1999.
2. الآبي، منصور بن الحسين الوزير (ت 421ه). نثر الدُّرّ. د.م: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1981.
3. الأَثْليدي محمد دَياب. إعلام النّاس بما وقع للبرامكة مع بني العبّاس. بيروت: دار صادر، 1990.
4. التنّوخي، المحسن بن عليّ (ت 384ه). الفرج بعد الشّدّة. بيروت: دار صادر، 1978.
5. التنّوخي، المحسن بن عليّ. المستجاد من فَعَلات الأجواد. بيروت: دار صادر، 1992.
6. ابن حَمْدون، محمد بن الحسن (ت 562ه). التذكرة الحَمْدونيّة. تحقيق إحسان عبّاس. بيروت: دار صادر، 1996.
7. الزمخشري، محمود بن عمر (ت 538ه). ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. تحقيق عبد الأمير مهنّا. بيروت: مؤسّسة الأعلى للمطبوعات، 1992.
8. ابن العربي، محيي الدين (ت 638ه). محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار. بيروت: دار صادر، د.ت.
9. القُشَيْري، عبد الكريم بن هوازن (ت 465ه). الرسالة القشيريّة. بيروت: دار الخير، 1991.
10. المعرّي، أبو العلاء أحمد بن عبد الله (ت 440هـ). رسالة الغفران. تحقيق عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ". مصر: دار المعارف، 1969.
11. المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت 1031ه). فيض القدير، شرح الجامع الصغير. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2009.
12. أبو نُعَيْم، (الأصبهاني) أحمد بن عبد الله (ت 430هـ). حلية الأولياء. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1986.

الثروة الشعريّة في الكتاب:

يحتوي كتاب سرور الصِّبا والشمول على مئات الأبيات الشعريّة، اختارها المؤلّف من عصور الأدب المتلاحقة، حتى عصره، وفي الباب التاسع الذي عقده المؤلّف للشعر نجد عشرات القصائد والموشّحات قد احتلّت مساحة كبيرة من هذا الباب، الذي هو أوسع الأبواب مادّة، فهو يقع في أكثر من خمسين صفحة من المخطوط، وقسم كبير من هذا الشعر لم يصل إلينا إلاّ من خلال هذا الكتاب.

إنّ الشعر الذي في الكتاب ليس من نظم المؤلّف إلا القليل، بالرغم من كونه شاعرًا مشهورًا، وصاحب ديوان كبير متداول في عصره، وعرف كيف يوظِّف هذا الشعر ليجعل كتابه أكثر متعة للقارئ فلا ينفكُّ عن مطالعته، والغوص على دُرَرِه. فعند حديثه عن أسماء بن خارجة أحد الولاة المشهورين بالجود والكرم، وكان الحكم بن عبدل الشاعر الأموي الذي نقل أبو الفرج الأصبهاني أخباره في كتاب الأغاني[1]، قد زاره فَطَعَّمَ ابن الطويل حديثه عنه بإيراده مقطعة شعريّة رقيقة ألهبت الممدوح فجاد عليه بمال وفير. وهذه المقطوعة هي:[من الكامل]

أَغْفَيْتُ قَبْلَ الصُّبْحِ نَوْمَ مُسَهَّدٍ ... في ساعَةٍ ما كنت قطُّ أَنامُها

فرأيْتُ أَنَّكَ رُعْتَنِي بِوَلِيدَةٍ ... مِغْناجَةٍ حَسَنٍ عَلَيَّ قِيامُهَا

وَبِبَدْرَةٍ حُمِلَتْ إلَيَّ وَبَغْلَةٍ ... شَهْباءَ ناجِيَةٍ يَصِلُّ لِجامُها

فَسَالتُ رَبِّي أن يُثِيبَكَ جَنَّةً ... عِوَضًا يُصِيبُكَ بَرْدُها وَسَلامُها

فضحك أسماء وقال له: أصبت، عندنا كلُّ شيء إلاّ البغلةَ، فإنّها دَهْماء، فقال له: أذكرتني أيّها الأمير، فإنّي ما رأيتها إلاّ دهماء، فضحك منه وأعطاه ما سأل.

وأذكر هنا بعض الطرائف التي يحتوي عليها كتاب ابن الطويل كنموذج لهذا الأدب الرفيع، لما فيه من متعة للنفوس، وغذاء للقلوب:

[1] الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني 2: 363 في ترجمة الحكم بن عبدل.

1) حكاية في الكَرَم والجُود:

"حُكِي أنّه وفد على الحسين بن عليّ رجل من الأنبار، كان صاحب ثروة قد حطّ به الزمانُ، إلى أن لم يجد شيئًا يقتاتُ به هو وعياله، فكتب له هذين البيتين: [من الكامل]

لَـمْ يَبْـقَ لِـي شَـيْءٌ يُبـاعُ بِـدِرْهَمٍ تُغْنِيـكَ رُؤْيَـةُ مَنْظَـرِي عَـنْ مَخْبَرِي
إلاّ بَقِيَّـــةُ مـــاءِ وَجْـــهٍ صُنْتُـــهُ عَـنْ أَنْ يُبـاعَ، وَقَـدْ أَبَحْتُكَ فَاشْـتَرِي

فلمّا قَرَأَها الحُسَيْنُ قال له: اجْلِس على الرُّحْبِ والسَّعَة، ثمّ أمر خادمه أن يعطيه جميع ما في حوزته، من غير أن يعرف الرجلُ بذلك، فَحَمَل له حِمْلَ بعير من الأمتعة والأموال، ووضع في فم الجمل رُقعة كتب فيها هذين البيتين: [من الكامل]

وافَيْتَنَـــا وافـــاكَ عاجِـــلُ بِرِّنـــا كُـــلاً وَلَـــوْ أَمْهَلْتَنـــا لَـــمْ نُقْصِـــرِ
فَخُـذِ القَلِيـلَ وَقُـلْ كَأَنَّـكَ لَـمْ تَبِـعْ مـــا صُـــنْتَهُ وَكَأَنَّنـــا لَـــمْ نَشْـــتَرِ

2) حكايـة تتصـل بمعـن بـن زائـدة الشـيباني أحـد أمـراء العـرب المعـروفين بـالكرم والشـجاعة والجُود. فيروى أنّه كان يومًا في الصّيد، فعطش فلم يجد مع غلمانه ماء، فبينما هو كذلك فإذا هو بثلاث جوار حاملات ثلاثَ قِرَب ماء فأسقينه، فطلب شيئًا من غلمانه فلم يجد، فدفع لكلّ واحدة عشرة أسهم من كنانته نصالها من ذهب. فقالت إحداهنّ: وَيْلَكُنّ، لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة، فلتقل كلّ واحدة منكنّ شيئًا. فقالت الأولى شعرًا: [من الوافر]

يُرَكِّـــبُ فـــي السِّـــهامِ نُصـــولَ تِبْـــرٍ وَيَرْمـــي فـــي العِـــدا كَرَمًـــا وَجُـــودا
فَلِلْمَرْضَـــى عِـــلاجٌ مِـــنْ جِـــراحٍ وَأَكْفـــانٌ لِمَـــنْ سَـــكَنَ اللُّحُـــودا

وقالت الثانية شعرًا: [من الكامل]

وَمُحـــارِبٍ مِـــنْ فَـــرْطِ جُـــودِ بَنانِـــهِ عَمَّـــتْ مَكارِمُـــهُ الأَقـــارِبَ وَالعِـــدَا
صِـيغَتْ نُصُـولُ سِـهامِهِ مِـنْ عَسْـجَدٍ كَـيْلا يُعَوِّقَـهُ القِتـالُ عَـنِ النَّـدَى

وقالت الثالثة شعرًا: [من الطويل]

وَمِـنْ جُـودِهِ يَرْمِـي العُـداةَ بِأَسْـهُمٍ مِنَ الـذَّهَبِ الإبْريـزِ صِيغَتْ نِصالُها
لِيُنْفِقَهـا المَجْـروحُ عِنْـدَ انقِطاعِـهِ وَيَشْـتَرِيَ الأَكْفـانَ مِنْهـا قَتِيلُهـا

وهكذا يفيض كتاب "سرور الصِّبا" بهذه الروائع الأدبيّة، والأزاهير التي تخلب ألوانها العقل، وتروع القلب وتفتّح الذهن.

ديوان ابن الطويل الشعريّ:

ذكرنا أنّ ابن الطويل كان شاعرًا متفنّنًا في كثير من ضروب الشعر، وللأسف الشديد فإنّ هذا الديوان لا يزال مخطوطًا قابعًا في المكتبة الظاهريّة في دمشق، لم يلق اليد التي تنفض عنه غبار الزمن وتخرجه إلى نور الحياة، ليفيد منه الدارسون والطلبة ومحبُّو الشعر الرائق. وهناك الآن معلومات قيّمة عن الديوان استقيتها من ثلاثة مصادر هي:

الأوّل: ما أثبته المُحِبّي في نفحة الريحانة،[1] في ترجمة ابن الطويل، من قصائد ومقطّعات بلغ عددها أربعين مقطوعة ، احتوت على مِائة وسبعة وسبعين بيتًا من الشّعر. وذكر المُحِبّي أيضًا قدر ثلاث صفحات احتوت على نماذج من نثر ابن الطويل، تشير إلى مقدرته على الكتابة والترسُّل مع بلاغة فائقة.

الثاني: ما أثبته المُرادي في سلك الدرَر[2]، في ترجمة ابن الطويل، من قصائد ومقطّعات ذكر المُحبّي قسمًا يسيرًا منها، وذكر شيئًا من رسائله ونثره. إنّ ما ذكره المُحبّي والمُرادي في كتابيهما من شعر ابن الطويل، يكاد يعطينا صورة جيدة عن شاعريّته، وأغراضه الشعريّة والأشخاص الذين كانوا في دائرة اهتمامه، وطارحهم في شعره. إلا أنّ ذلك لا يسدّ مسدّ ديوان ضخم نظمه ابن الطويل طيلة حياته.

الثالث: فهرس مخطوطات المكتبة الظاهريّة في دمشق . قسم الشِّعر[3]. وهنا وصف تفصيليّ لديوان ابن الطويل، جاء فيه:

[1] ذيل نفحة الريانة 6: 139، 157.

[2] سلك الدرر 2: 245، 253.

[3] وضعه الدكتور عزّة حسن، دمشق، 1964، ص: 136 -137.

ديوان الخال: رقم المخطوط 5539

وهو مجموع قصائد ومقطوعات وأدوار في فنون شتّى. نظمه عبد الحيّ (عبدي) بن علي بن محمد بن محمود الدمشقي الشهير بابن الطويل الطالوي المعروف بالخال والمتوفَّى سنة 1117 للهجرة النبويّة.

جمعه ورتّبه، استنادًا على نُسخة الناظم، عبد الرحمن بن محمد بن الحاج علي التركماني، وضمّ إليه ما شذّ عنه، وجعله على أبواب هي:

1. الباب الأوّل: فيما له من المديح البديع في جناب ذي الرُّتَب السنيّة، والشأن الرفيع (يعني النبيّ)
2. الباب الثاني: في الغزل الرائق العجيب، وما يتعلّق به من النسيب.
3. الباب الثالث: فيما له من المواليا، بحسن سَبْك أضحى بالدُّرّ النظيم حاليا.
4. الباب الرابع: في الأهاجي وتوابعها ممّا تقرّ به عين سامعها.
5. الباب الخامس: فيما له من الرسائل المشتملة على الإنشاء البليغ الرقيق الممزوج بنظْم أربى على الرحيق.

وأوّله من المقدّمة :" حَمْدًا وافِيًا مُسْتَحِقًّا لِمَن سَطَّرَ حُروفَ الكائِنات في ديوان الوُجود ...".

وأوّله من الشعر قصيدة في مدح الرسول مطلعها: [من الوافر]

دُمُـــوعٌ إنْ تَسَـــلْ عَنْهَـــا تَســـيلُ وَقَلْـــبٌ مَـــا لِصِـــحَّتِهِ سَـــبِيلُ

وآخره قصيدة مطلعها: [من البسيط]

لِلّـــهِ قَـــوْمٌ لَقَـــدْ أضْـــحَتْ مَـــآثِرُهُمْ مِـنْ بَعْـدِ مَـا دَرَسُـوا لِلنّـاسِ أَمْثـالا

ويضيف الدكتور عزّة حسن: نسخة جيّدة، مكتوبة بخط نسخ معتاد، مشكول بعض الشّكل، الأبواب والعبارات في أوّل القصائد مكتوبة بالحمرة. كتبه محمد بن عبد الرحمن الطياري التونسي الحنفي سنة 1194 هجريّة.

ننتقل الآن إلى ذكر بعض النماذج الشعريّة من ديوان ابن الطويل الدمشقي المعروف بالخال، وليس عندي شيء من مدحه للرسول (ص) سوى البيت الذي ذُكر آنفًا.

فمن قصيدة له في مدح أحد الملوك استهلّها بأبيات من الغزل الرائع: [من الطويل][1]

أَمِنْ قَطَراتِ الطَّلِّ جِسْمُكَ أمْ أَصْفَى ... فَقَدْ كادَتِ الألحاظُ تَرْشِفُهُ رَشْفَا
هَتَكْتَ الوَرَى فَارْدُدْ لِثامَكَ عَلَّ ما ... تَبَدَّى مِنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ لَنا يَخْفَى[2]
وَكُفَّ سِهامَ اللَّحْظِ عَنْ قَلْبِيَ الّذي ... أُذِيبَ هَوًى مُذْ شامَ أجْفانَكَ الوَطْفا[3]
سَليلِ الكِرامِ الصِّيدِ حَقًّا وَمَنْ لَهُ ... مَحامِدُ لا تُنْسَى وَإنْ سُطِّرَتْ صُحْفَا
مَلِيكٌ إذا ما الدّهْرُ أُضْعِفَ بُرْهَةً ... وَوافَى حِماهُ الرَّحْبَ لارْتاحَ وَاسْتَشْفَى

الشاعر هنا مقِّلد في مدحه يصف ممدوحه بالصفات التي عهدناها عند شعراء آخرين.

وقال مورّيًا وقد ألمّ بقول ابن خفّاجة الأندلسيّ: [من السريع]

عَوْدًا كَما عادَ الظُّبَا لِلْجُفُونْ ... عَسَى يِرَى النَّوْمُ طَرِيقَ الجُفُون[4]
مَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ تَوْدِيعِهِمْ ... أنّ المَطَايَا مِثْلُنا فِي شُجُونْ

وقال يمدح الشيخ عبد الغني النابُلُسي: [مجزوء الكامل][5]

بَحْرُ العُلُومِ وَمالَهُ ... حَدٌّ كَما لِلْبَحْرِ ساحِلْ
باهَى بِطَلْعَتِهِ الشُّمُو ... سَ الطَّالِعاتِ وَلا تَماثُلْ
وَسَلِ السُّهَى عَنْ قَدْرِهِ ... فَمَحَلُّهُ تِلْكَ المَنازِلْ
عَبْدُ الغَنِيّ وَإنْ تَأَخَّـ ... ـرَ فَهْوَ قُطْبٌ بِالدَّلائِلْ

وقال فيما تفعل العُيون في القلوب: [مجزوء الكامل][1]

---

[1] ذيل نفحة الريحانة 6: 139؛ سلك الدرر 2: 245 - 246. وعدد أبياتها في المصدرين 12 بيتًا.

[2] ثَغْر شَنِيب: أبيضُ الأسنان حَسَنُها.

[3] شامَ البرق يشيمه شَيْمًا: راقبه ينظر إليه أين يصوب ماءه. والوَطَف (بفتحتين) كثرة شعر العينين (الرموش). سكَّن الطاء ضرورة.

[4] الجفون الأولى أغمدة السيوف. والجفون الثانية جمع جفن وهو غطاء العين. وقال ابن خفّاجة الأندلسي:

إيابٌ كَما آبَ الحُسامُ إلى الجَفْنِ ... وَعَوْدٌ كَمَا عَادَ المَنامُ إلى الجَفْنِ

[5] ذيل نفحة الريحانة 6: 142. 143 ؛ سلك الدرر 2: 246-247.

بِاللّـــهِ أُقْسِـــمُ وَالفَلَـــقْ أنَّ المَنِيَّـــةَ فِـــي الحَـــدَقْ
لا بِالسَّـــــوابِغِ يُتَّقَـــــى سَـــهْمُ اللِّحـــاظِ وَلا الـــدَّرَقْ[2]
بَـــلْ إنّمـــا رُسُـــلُ المَنـــا يَـــا فِـــي الجُفُـــونِ لِمَـــنْ رَمَـــقْ
سُـــودُ العُيُـــونِ ونُجْـــلُهَا أَرْمَـــيْنَ فِـــي قَلْبِـــي الحُـــرَقْ
حُطِمَـتْ جُيُـوشُ الصَّـبْرِ حَتَّى م مَـــا بَقِـــي فَيهـــا رَمَـــقْ

وكتب إلى بعض أصحابه في زمن الوَرد: [من الطويل][3] وقد طابق في الشطر الثاني من البيت الأوَّل بين البسْط والقبْض.

هَلُمُّـوا إلَـى دَاعِـي السُّـرُورِ وَنَبِّهُـوا إلى البَسْـطِ أَفْكـارًا أَضَـرَّ بِهَـا القَـبْضُ
وَوافُـوا حُقُـوقَ الـوَرْدِ قَبْـلَ ذهَابِـهِ فَهـذا لِثَـوْبِ الـرُّوحِ إنْ صـدِيَتْ رَحْـضُ
وَهَـذا حُلِـيُّ الـنَّفْسِ وَالأَنْفَـسُ الّـذِي عَلَـى الفَلَـكِ الـدَّوّارِ تَزْهُـو بِـهِ الأَرْضُ

ومن هجوه: [من الوافر][4]

بُلِيـتُ بِصـاحِبٍ وَلَـهُ شَـقِيقُ شِـهابُ الـدِّينِ ذُو شَـكْلٍ كَرِيـهِ
كِـلا الـرَّجُلَيْنِ ضَـرّاطٌ وَلكِـنْ شِهابُ الدِّينِ أَضْرَطُ مِنْ أَخِيهِ

وقال في رجلٍ أَكول: [من الطويل][5]

رَأَيْـتُ الفَتَى الـوَزّانَ يَسْـعَى لِغَـدْوَةٍ وَقَـدْ سُـدَّتِ الـدُّنْيَا مِـنَ البَرْدِ وَالـثَّلْجِ
إذا قِيـلَ فـي أَرْضِ الحِجـازِ وَلِيمَـةٌ يَقُـولُ لَنَـا:، حَتْمًـا، نَوَيْـتُ عَلَى الحَجِّ

[1] المصدر نفسه: 6: 145؛ المصدر نفسه 2: 248. وجاء في نفحة الريحانة أنّ هذه الأبيات جاءت على منوال قصيدة لابن مطروح وأخرى لأحمد بن حميد الدين.

[2] السوابغ الدروع الطويلة الكاسية. والدرَق تُروس من جلد ليس فيها خشب. والمعنى أنّ سهم العين لا يتّقى بالدروع أو التروس، وإنّما ينفُذ إلى شِغاف القلب.

[3] سلك الدرر 2: 252.

[4] هو من مثل شعبيّ سائر نصّه: كِلا الأخوين ضرّاط، ولكنّ شهاب الدين أضرطُ من أخيه.

[5] سلك الدرر: المكان نفسه.

وقال في منافق: [من الوافر][1]

وَرُبَّ مُنَـــافِقٍ بَاطِنْـــهُ قَبْـــرٌ وَظـاهِرُهُ مُضِـيءٌ كَالسِّـــراجِ
كَمِثْذَنَـــةٍ فَظاهِرُهـــا قَـــوِيمٌ وَباطِنُهـا ظَـلامٌ فِي اعْوِجـاجِ

ومن بديع غزله: [مجزوء الكامل][2]

كَالغُصْنِ مَالَـتْ فِي غَلائِـلْ وَمَضَتْ وَلَـمْ تَشْـفِ الغَلائِل[3]
مَالَـــتْ كَخُـــوطِ أَراكَـــةٍ لَعِبَـتْ بِهَـا أَيْـدِي الشَّـمَائِل[4]
نَزَلَـــتْ بأَكْنـــافِ الحِمَـى لِتُظِلَّهَـــا تِلْـــكَ الخَمائِـــلْ
فَتَعَطَّـــرَ النّـــادِي وَنـــا دَى أَهْلَـــهُ أَهْـــلاً مَنـــازِلْ
وَرَنَـــتْ إِلَـــيَّ بِطَرْفِهـــا فَرَأَيْتُ شَخْصَ المَوْتِ جائِلْ
وَتَكَلَّمَـــــتْ فَتَكَلَّمَـــــتْ أَحْشـــايَ وَازْدادَتْ بَلابِـــلْ[5]

وهي طويلة.

ومن بليغ نثره:[6] مكاتبة مع أحد الأصدقاء:

" مُذْ غُرِسَت أَغْصانُ أَلِفاتِ الحَمْدِ في رياض الطُّروس، وأفاض عليها تيّار البلاغة من قاموس الشُّكر ما لم يحْوه القاموس.

وأَمطرتها سحائبُ الفصاحةِ بدائعَ دُرَرٍ ليست في البحر العُباب، وأحاطت بها أبنية الثّناءِ مِن كلِّ جانب، وسَرَتْ إليها صَبا القَبول مِن كلِّ باب.

---

[1] المصدر نفسه والمكان.

[2] ذيل نفحة الريحانة 6: 141- 142.

[3] الغلائل (الأولى): جمع غِلالَة وهي شِعار يُلبس تحت الثوب وتحت الدِّرْع أيضًا. والغَلائل: (الثانية) جمع الغُلَّة وهي حرارة العطش، وهي تورية جميلة.

[4] الخُوط: الغُصْن الناعِم. والشمائل: ريح الشِّمال.

[5] تكلّمت الأولى: تحدّثت، وتكلّمت أحشاي: أصابها الكَلْمُ وهي الجرح، وبلابل الصدر: ما يجيش به من الهمّ.

[6] ذيل نفحة الريحانة 6: 149.

وفاحت روائحُ نَوْرِ تلك الطُّروس، وتمايلت أغصان ألِفاتها كالعرائس فنادى لسانُ القلم: لا عِطْرَ بعد عَروس[1].

فكانت ثمراتها أدعيةً لا يقوم بوصفها لسان، ولا يحصرها طِرْسٌ ولا بنان. ودون سنَا أنوارها إشراق النَّيِّرَيْن، ومقامها سامٍ على الفَرْقَدَيْن.

محفوفة بأنواع التحيَّات والتكريم، ناشرة لما انْطوى من الفضل الحادث والقديم، واصلة إلى بحر العلم الذي لا يُدرك غَوْرُه، وطَوْدِ الفضل السامي الذي لا يُقتضبُ طَيْرُه.

ينبوع عينِ كلِّ فضلٍ وبيان، ونبعة المجد اليانعة الأغصان، وإنسان كلِّ عينٍ وعينُ كلِّ إنسان. نُور العين المُشرقة من الأفلاك العُلْويّة، وضياء الشمس البازغة من سماء الأرحام الهاشميّة ..."

وبعدُ،

فهذا ما يسّر الله لنا في هذه الوريقات في الحديث عن تراث ابن الطويل الدمشقي الشاعر والكاتب والأديب، ولن يكمل المشوار إلا عندما نرى هذا التراث، المتمثِّل في كتابه: "سرور الصِّبا والشمول"، وديوان شعره القابع في المكتبة الظاهريّة، قد أخذ حظّه من النور، وبدا جليًا لقرّاء العربيّة وعاشقي الأدب، ونحن جادُّون بعونه تعالى على إتمام تحقيق الكتاب.

[1] لا عطر بعد عروس: مثل يُضرب في الشيء لا يُفيد بعد فوات أوانه. مجمع الأمثال للميداني 2: 211، وفي رواية أخرى: لا مخبا لعطر بعد عروس.

ببليوغرافيا

- الأصبهاني، أبو الفرج. **كتاب الأغاني**. نسخة مصوّرة بالأوفست في مدينة حيفا عن طبعة دار الكتب، (د.ت).
- البغدادي، إسماعيل باشا. **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**. بيروت: مكتبة المثنّى، (د.ت).
- البغدادي، إسماعيل باشا. **هديّة العارفين**. نسخة مصوّرة بالأوفست عن نسخة استانبول، بغداد: مكتبة المثنّى، 1951.
- الزِّرِكْلِي، خير الدين. **الأعلام**. ط5. بيروت: دار العلم للملايين، 1980.
- عاصي، ميشيل ويعقوب، إميل بديع. **المعجم المفصّل في اللغة والأدب**. (م 1ـ2). بيروت: دار العلم للملايين، 1987.
- عزّة، حسن. **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهريّة** (الشعر). دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1964/1384.
- كحّالة، رضا عمر. **معجم المؤلّفين**. بيروت: مكتبة المثنّى ودار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- المُجِبّي، محمّد أمين بن فضل الله (1061 . 1111 هـ). **ذيل نفحة الريحانة**. تحقيق عبد الفتّاح محمّد الحلو. د.م: دار الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي، 1967.
- المُرادي، محمّد خليل بن علي (1173 ـ 1206 هـ). **سِلْك الدُّرَر في أعيان القرن الثاني عشر**. ط.3. بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1988.
- الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري. **مجمع الأمثال**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1961.
- وهبه، مجدي والمهندس، كامل. **معجم المصطلحات في اللغة والأدب**. لبنان: مكتبة لبنان، 1979.